

الأدب المقارن: مفاهيمه ومدارسه

Comparative Literature (its Concepts And Schools)

أ.د سعيد عكاشة

جامعة جيلالي ليابس - سيدي بلعباس (الجزائر)

okachasaid80@gmail.com

حفيان عبد القادر*

جامعة جيلالي ليابس - سيدي بلعباس (الجزائر)
عضو في مخبر تجديد البحث في تعليميّة اللغة العربيّة في
المنظومة التربويّة الجزائريّة

abdelkaderhafiane22@gmail.com

تاريخ القبول: 2024/12/22

تاريخ الاستلام: 2024/10/31

ملخص:

لقد استعمل الأدب المقارن كأداة معرفية يتم من خلاله الكشف عن عملية التأثير والتأثر والاختلاف بين ظاهرتين أدبيتين أو موضوعين مختلفين بين لغة ولغة ومن هنا يحاول هذا البحث الوقوف على ماهية الأدب المقارن، ومدارسه المختلفة والمتعددة، وإعطاء لمحة مختصرة حول نشأة هذا الأدب، وإذا كانت الإشكالية المطروحة حول هذا البحث والتي نريد طرحها ومعالجتها والتمحيص والتي هي الوسيلة المتاحة للدخول في خضم هذا البحث وتتلخص هذه الإشكالية في ما يلي:

- ما أسباب ظهور الأدب المقارن وما العوامل التي أثرت في ظهوره؟ وما انعكاساتها على الدراسات العربية؟

كلمات مفتاحية: الأدب المقارن، المفاهيم، المدارس، الأهداف.

Abstract:

Comparative literature has been utilized as a cognitive tool through which the process of influence, interaction, and difference between two literary phenomena or different subjects in language and culture are revealed. Hence, this research attempts to understand the nature of comparative literature, its various and diverse schools, and to provide a brief overview of the emergence of this literature. The posed problematic of this research that we aim to address, analyze, and examine, which is the available means to delve into this research, can be summarized in the following:

- What are the reasons for the emergence of comparative literature and what factors influenced its emergence? What are its implications for Arab studies?

Keywords: Comparative Literature, Concepts, Schools, Goals.

1. مقدمة:

لقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر ظهور نماذج ونظريات تدرس الأدب من جوانب متعدّدة، وقد كان ظهور الأدب المقارن متعلّقاً في أبعاده الأساسية بتأثيرات أتت إلى عالم الأدب من جميع المجالات وقد أسهمت هذه التأثيرات في بلورة منهج يسعى لدراسة الأدب في علاقاته الخارجيّة.

وقد كثر السّجال بين النقاد والباحثين في الأدب المقارن في تحديد مفهوم لهذا الأدب وفي نشأته عند أغلب الدارسين الغربيين مما كان سبباً في تعثر خطأ الدّراسة في وتنفيذ كثير من الدّارسين عنه، وتضليل النّاس في جدواه.

2. مفهوم الأدب المقارن ومدلوله:

إنّ مدلول "الأدب المقارن" تاريخي: «ذلك أن يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة وصلاتها الكثيرة المعقدة في حاضرها أو في ماضيها، وما لهذه الصّلات التاريخية من تأثير وتأثر»¹ أيّاً كانت مظاهر ذلك التأثير أو التأثير، سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبيّة أو التيارات الفكرية، أو اتّصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب، أو كانت تمس مسائل الصياغة الفنية والأفكار الجزئية في العمل الأدبي، أو كانت خاصة بصورة البلاد المختلفة كما تنعكس في آداب الأمم الأخرى، بوصفها صلات فيه تربط ما بين الشعوب والدول بروابط إنسانية تختلف باختلاف الصور والكتاب، ثم ما يمت إلى ذلك بصلة من عوامل التأثير والتأثر في أدب الرحالة من الكتاب.

الأدب المقارن يعني بدراسة نصوص عبر ثقافات مختلفة وأنه واحد من مجالات الدراسة البيئية وأنه يهتم بأنماط العلاقات في الآداب عبر كل من الزمان والمكان.

وفي تعريف آخر للأدب المقارن: هو توحيد العلاقات الأدبية العالمية، ودراسة آثار الآداب المختلفة من جهة علاقتها بعضها البعض.

ويعدّ كذلك فن تاريخي يبحث في مجالات التأثير والتشابه والتقارب، وتقريب الأدب من مجالات التعبير والمعرفة الأخرى، وأيضا الأحداث والنصوص الأدبية فيما بينها، المتباعدة أو المقاربة في الزمان والمكان، شرط أن تعود إلى لغات أو ثقافات أدبية مختلفة.

ومن ناحية أخرى هو يدرس الأدب، بحيث يتعدى القطر الواحد، ويدرس العلاقات القائمة بين الأدب من ناحية وبين مجالي المعرفة والمعتقدات الأخرى كالفنون، والفلسفة والتاريخ والعلوم الاجتماعية والعلوم البحثية والأديان... الخ من جهة أخرى.

3. نشأة وتطور الأدب المقارن:

ترجع نشأة الأدب المقارن إلى العقد الثالث من القرن التاسع عشر وربما إلى سنة 1827م بالضبط حين بدأ الفرنسي آبل فيلمان **Abel Villeman** يلقي محاضرات في السربون بباريس تدول حول علاقات الأدب الفرنسي في الآداب الأوروبية الأخرى، إذ تناول مثلاً التأثيرات المتبادلة بين الأدبين الفرنسي والانجليزي، وكذلك أثر الأدب الفرنسي في إيطاليا في القرن الثامن عشر. والجدير بالذكر أن فيلمان استعمل مصطلح (الأدب المقارن) وإليه يعود الفضل في وضع الأسس الأولى لمنطق هذا النوع من الدراسة الأدبية ومنطقته.

وتعتبر فرنسا المهد الأول للأدب المقارن ولذلك عوامل لغوية وسياسية واجتماعية وثقافية أهمها: أنّ فرنسا احتضنت منذ البدء الدراسات الخاصّة باللّغات الرومانسية، وهي لغات أقطار أوروبا الجنوبية التي تفرعت عن اللاتينية واستقلت عنها وأخذت عنها بالتدرج امتيازها الخاص، ونظراً لاهتمام فرنسا باللّغات الرومانسية وثورتها على اللّغات اللاتينية إلا أنّ هذا تبلور في شكل اتجاه أدبي فكري شعراء الثريا، فإن الفرنسيين كانوا أوّل من تنبّه إلى قيمة التراث المشترك بينهم وبين المناطق الأوروبية الأخرى، مما خلق الأساس الأوّل للتفكير في الأدب المقارن، وكان المناخ الثقافي الفرنسي مواتياً لممارسة البحث الأدبي العميق، ولا سيما بعد أن تعاقب على فرنسا حكام اهتموا بأن تكون باريس مركز إشعاع ثقافي للقارة الأوروبية بأكملها.

4. عدّة الباحث في الأدب المقارن:

إنّ الباحث في الأدب المقارن يقف عند منطقة الحدود المشتركة للآداب المختلفة بتأمّل حركتها في تبادل صلاتها بعضها مع بعض، ويكتشف التيارات العامة لتلك الصلات وآثار ذلك في رحاب الأدب، وفي الكتب والموضوعات، وفي الإحساس والتفكير ولهذا يجب أن يكون واسع الأفق، قادراً على دراسة ما يتصدى لبحثه دراسة علمية، وعليه يجب أن تتوفر في الباحث في الأدب المقارن شروط أساسية يجب أن يسلم بها، ومنها:

لا بدّ أن يكون الباحث في الأدب المقارن على علم بالحقائق التاريخية للعصر الذي يدرسه كي يستطيع إحلال الإنتاج الأدبي محله من الحوادث التاريخية التي تؤثر في توجيه مجراه.

من الواضح أن الدارس للأدب المقارن يجب أن يعرف معرفة دقيقة تاريخ الآداب المختلفة التي هو بسبيل البحث فيها، إن لم يكن في كل عصورها، فعلى الأقلّ العصر الذي هو موضوع دراسته، وما يتصل به مما يمكن أن يكون قد أثر في إنتاجه الأدبي.

وتستلزم دراسة الأدب المقارن أن يستطيع الدارس قراءة النصوص المختلفة بلغاتها الأصلية، أمّا الاعتماد على الترجمة فما هو إلاّ طريقة ناقصة لا يصح أن يلجأ إليها إذا أريد تقييم التأثير والتأثر الأدبيين على وجههما الصحيح، إذ أنّ لكل لغة خصائص وروحاً لا تفهم إلا فيها ولا تتذوق إلا بقراءة نصوصها.

يجب أن يكون الطالب ذا إلمام بالمراجع العاتقة، عالماً بطريقة البحث في المسائل ومواقعها من الكتب التي يدرسها، فعلى من يريد أن يدرس الصلات الأدبية العربية الفارسية أن يبحث فيما يخص اللغة العربية ونصوصها في كتب الأدباء والمؤرخين الذين كتبوا بالعربية وهم من أصل فارسي، كالطبري، وحمزة الأصفهاني، وابن المقفع وابن قتيبة...، فيما يخص الفارسية يجب أن يرجع إلى النصوص الأدبية التي ترجمت عن العربية ثم إلى النصوص التي حوكت فيها أصل عربي أو تأثرت به، وذلك كترجمة كليلة ودمنة الفارسية.

5. مدارس الأدب المقارن:

تعتبر المدرسة الفرنسية هي أول اتجاه في الأدب المقارن، وكان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر واستمرت سيطرتها كاتجاه وحيد في الأدب المقارن إلى نهاية أواسط القرن العشرين، أي قرابة قرن من الزمان تقريباً حيث ظهرت اتجاهات أخرى نازعتها هذا التفرد.

1.5 المدرسة الفرنسية (المنهج التاريخي):

إنّ لنظرة المدرسة الفرنسية التقليدية إلى دور الأدب المقارن وحقله العلمي ومنهجيته أسس وخلفيات نظرية وفلسفية تأتي في المقدمة منها النزعة التاريخية في دراسة الأدب، تلك النزعة التي انتشرت على نطاق واسع في فرنسا وأوروبا على امتداد القرن التاسع عشر، ويرى أصحاب النزعة أنّ تاريخ الأدب هو في جزء كبير منه².

وكان من الطبيعي في ظل التوجهات القومية في اللغة والأدب والتاريخ في فرنسا أن يتجه الأدب المقارن اتجاهاً قومياً تاريخياً، هدفه أن يكشف عن الإسهامات التي يقدمها أدب قومي في تطور أدب قومي آخر، لذا اشترطوا دراسة التأثير أو التأثر أن تكون العلاقة بين الأدبين القوميين مبنية على وقائع ووثائق تاريخية، تثبت انتقال الأدب المؤثر إلى الأدب المتأثر، مما أدى إلى التركيز على وسائط التأثير كالترجمة والرحلات والكتب وتتبع سيرة الكاتب المؤثر، وسيرة الكاتب المتأثر، وكأن المهمة الأساسية للمقارنة في هذا الاتجاه، تنتهي عند إثبات التأثير بين أدبين قوميين³.

وعبر تاريخ الأدب المقارن، وقبل التطور الذي لحق به فيما بعد الحرب، يمكن أن نفهم جزئياً تنوع التفسيرات المتناقضة في الغالب، حول طبيعة ووظيفة الدراسات المقارنة، إذ سيطر على هذه الدراسات، خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر، عدة علماء فرنسيين متميزين.

2.5 المدرسة الأمريكية (المنهج النقدي):

لقد استفاد المفهوم الأمريكي للأدب المقارن، من ردود الفعل التي ثارت خلال النصف الأول من القرن العشرين، ضد تاريخية ووضعية القرن التاسع عشر، مستفيداً من المتغيرات الفكرية والمنهجية، ومتلاقياً لقصور المفهوم الفرنسي.

ومن الاتجاهات النقدية التي عارضت مواقعها النظرية والتطبيقية تعارضاً شديداً مع الاتجاه التاريخي في الأدب المقارن ذلك الاتجاه النقدي الذي يعرف بالنقد الجديد (**New Criticism**)، فقد حمل أبرز ممثلي هذا الاتجاه على دراسة التأثير، وأسس الفلسفية والنظرية وتطبيقاتها ودورها، وذلك في محاضرة تاريخية ألقاها عام 1958 في جامعة "تشابل هيل" الأمريكية ولقد وجه وويليك إلى المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن نقداً لا مثيل له، ونسف أسس تلك المدرسة ومركزاتها، وكانت هذه المحاضرة حول أزمة الأدب المقارن ولم يكن مقال "أزمة الأدب المقارن" المقال الوحيد فق رسم معالم المدرسة الأمريكية بل ظهرت مقالات كثيرة ساهمت في تحديد معالم الأزمة، ومظاهر التجاوز، إلا أنّ أغلبها اتسمت بطابع المصالحة والوساطة بين تاريخ المدرسة الفرنسية، وجمالية النقد الجديد عند المدرسة الأمريكية، فكانت تدخلات أبرز ممثليها، تمثل نزعة التوفيق بين أهم ما توصلت إليه المدرستان⁴.

لقد وضع ريماك أسس الأدب المقارن والتي تختلف عن المدرسة الفرنسية محطماً بها شوكة النموذج الفرنسي نهائياً، وكان التعريف الذي قدمه ريماك ملخصاً للاتجاهات السائدة في الولايات المتحدة بأسرها، كما أصبح الميثاق الذي تتبعه المدرسة الأمريكية للأدب المقارن، وبرر ريماك موقفه بتصريحه أنه اختار عن عمد مدخلاً غير تاريخي وغير نوعي، وإنما مدخل وصفي ومتزامن، وقابل بين مدخله هذا ومدخل علماء المقارنة السالفين.

ولقد اعتقد ريماك أن المنهج الفرنسي منهج ذو آفاق ضيقة، ويعتمد بطريقة مبالغ فيها على الشواهد المادية وأوضح أن دراسات التأثير على الطريقة الفرنسية تخلو من الخيال حيث أنها مستمدة من المدخل الوضعي.

3.5 المدرسة السلافية (الفكر الماركسي):

لقد وضع "روني إيتمبل" في ندوة بودابست 1962م مستشهداً بأقوال ماركس، كيف أنه لا مجال للعزلة الإقليمية والوطنية القديمتين الآن، حيث يتحتم انفتاح مجال العلاقات على عالمية الاسم التي كان يحول دونها هذا الاعتماد على النفس قديماً.

ويظهر من خلال استشهاده بأقوال ماركس، بأن ما هو حقيقي بالنسبة للإنتاج المادي ينطبق كذلك على الإنتاج الثقافي، إذ تصبح أعمال أمة ملكية لكل الأمم مما يبعد محدودية النظر والوطنية الضيقة.

ولقد نظر المقارن الروسي "فيكتور جيرمونسكي" وأحد أعلام نظرية الأدب الماركسي إلى الأدب من منظور أممي أي عالمي، دون أن ينكر خصوصية كل أدب من الآداب القومية، إلا أنه رأى أن الآداب تمر بمراحل التطور نفسها، وذلك تبعاً لتطور البنى الاقتصادية والاجتماعية (البنى التحتية) التي تعكسها، مع إقرارنا بأهمية المنطلق العالمي للأدب المقارن الماركسي، فإننا نرى أنّ مقولته الرئيسية هذه لا تساعد كثيراً في فهم إشكالية عالمية الأدب والبنى المتناقضة للعلاقات الأدبية الدولية، فتركيزه على دور "البناء التحتي" يقلل من قدرتنا على تفسير ظاهرة ازدهار آداب مجتمعات متأخرة، كآداب أمريكا الجنوبية، التي تمكنت من احتلال موقع متميز على خريطة الأدب العالمي المعاصر.

أمّا ما يساعدنا في فهم إشكالية الأدب العالمي والعلاقات الدولية فهي مقولته التي ترى أنّ عملية الاستيراد الثقافي والأدبي، التي أطلق عليها المقارنون التقليديون الفرنسيون تسمية ظواهر التأثير والتأثر، تخضع لحاجات الطرف المستورد أكثر مما تخضع لحاجات الطرف المصدر.

إن هذه المقولة التي تنسجم مع نظرية التلقي الأدبي المعاصر تصلح لتفسير كثير من الظواهر المتناقضة التي تحفل بها العلاقات الأدبية الدولية، وتضع حدّاً لأوهام الهيمنة الأدبية والغزو الثقافي.

6. تجليات الأدب المقارن في الدراسات العربية (التأليف المنهجي):

لا شكّ في أنّ مظاهر التجديد في فروع الدّراسات الأدبيّة والنقدية العربية تنوّعت وتكاثرت خلال القرن العشرين الذي بدأ يعطي ثمار التواصل الذي تمّ في القرن التاسع عشر بين الأدب العربي والآداب الأجنبية والأوروبية منها على نحو خاص.

لقد كان كتاب "الأدب المقارن" لمحمد غنيمي هلال تنويجاً لمرحلة طويلة من الإرهاصات والمقدمات والبحث عن المصطلح واللجوء إلى الترجمات، وهذه المحاولات كلّها كانت تقنياً لظاهرة قديمة، كان الأدب العربي كغيره من الآداب الكبرى قد عرفها خلال تاريخه الطويل، وهي ظاهرة تبادل التأثير والتأثر بين الآداب بعضها ببعض، وكان إصداره لهذا الكتاب سنة 1953 بداية التأليف المنهجي في ذلك الفرع في الأدب العربي.

ولقد عنى الكتاب بالرصد والتعريف وتقديم الأمثلة واقتراح الموضوعات القابلة للبحث في هذا الفرع الجديد من الناحية النظرية أو الناحية التطبيقية، وكان واضحاً منذ البداية ازدحام المعلومات الكثيرة في عقله حول حقل الأدب المقارن فور عودته من بعثته في السربون التي عمّق خلالها معرفته باللغات الأجنبية، الفرنسية والانجليزية والفارسية وتسلح من ثم بزاد لغوي يضمه في صف الدارسين المثاليين للأدب المقارن⁵.

ويعتبر هذا الأخير الحرب العالمية فاصلاً بين اللاّتخصّص والتخصّص إذ تحسّن حال الدراسات المقارنة بعدها، وأوفد بعض الدارسين إلى الخارج، وظهرت بعض الترجمات عن الفرنسية «ووجهت الجامعات المصرية أيضاً أهمية أكبر إلى المقارنة في مجالات أخرى غير الأدب مثل مجالي القانون المقارن واللغويات العامة المقارنة».

كما يوضح في هذه المقالة التاريخية أنّ محاضراته في دار العلوم تغطي نقطتي الأدب المقارن والنقد المقارن، ويبيّن أنه حتى تاريخ كتابه المقالة 1959 كان المتخصص الوحيد في تدريس الأدب المقارن في الجامعات العربية (مصر وسوريا) ويؤكد هذه الفكرة في نهاية المقال بقوله: «وحتى اليوم وأنا أتابع عبء تدريس هذه المادة بأكمله وحدي» ويشير إلى: «أثنا بالكاد تجاوزنا الطور الجيني»⁶.

وكان تأثيره في تحديد مسار الأدب المقارن حاسماً، حيث أشاع منهجيته السليمة، وتناول موضوعات منه في أبحاث مستقلة، كالمواقف الأدبية والنماذج الإنسانية، وجعل منه علماً واضحاً مستقلاً، فبدأت الجامعات الأخرى مصرية وعربية تحذو نَحْج دار العلوم.

وكان التطور بطيئاً جداً في الستينات سواء من ناحية الاعتراف بمقرر "الأدب المقارن" أما من ناحية مضمونه حيث كان يقتصر في جامعات كثيرة على دراسة نصوص الآداب الأجنبية، وما زال كذلك في بعض الجامعات حتى مطلع التسعينات.

7. خاتمة:

لقد وسّع الأدب المقارن مجال عمله في البحث الأدبي منذ بداية القرن العشرين ليس لفهم العلاقة بين النصوص الأدبية فقط ولكن لفهم علاقة الأدب بمجالات الفن والمعرفة الأخرى، بحيث كانت فرنسا هي المنطلق للأدب المقارن، والذي تجاوز منطلقه الأصلي ليشمل أدب جميع البلدان بحيث اهتم به الكتاب ونقاد الأدب والباحثون فيه.

كما يسعى الأدب المقارن لاكتشاف "الآداب العالمية" بتنوع عناصرها اللغوية والثقافية باستمرار لمواكبة كل ما هو جديد، ويشمل ذلك الحث على التحليل النقدي للأنواع الأدبية، وجوانب التاريخ الثقافي كافة والأساسيات والنظريات والمنهجيات في جميع الفروع الأدبية والثقافية واللغوية والفلسفية والاقتصادية والعلمية والسياسية والتكنولوجية، وتنسيق الفترات الزمنية والمناطق الجغرافية، والثقافات واللغات والتفسيرات، بالإضافة للاطلاع على الأبحاث المنفردة التي تتحدى آراء المجتمع، ومن ثم دراسة مدى تفاعل واستجابة وتغيّر هذه التخصصات.

ولقد بقيت المؤلفات العربية في الأدب المقارن لسنوات طويلة تحت طائلة التأثير الغربي منهجاً وتطبيقاً غير أنّ نوعاً من الاستقلال ظهر في السنوات الأخيرة لدى عدد من المقارنين العرب، وذلك بعد أن توسّعوا وانفتحوا على مصادر منهجية وتطبيقية وهذا ما سمح لهم بالخروج من طائلة التأثير الغربي والتفرد بمنهجهم الخاص.

8. الهوامش:

- ¹ - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ط3، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص 09.
- ² - فرانسوا جويار، الأدب المقارن، ط2، ترجمة: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت، لبنان: 1988، ص 7.
- ³ - عبده عبود، الأدب المقارن مشكلات وآفاق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا: 1999، ص 28.
- ⁴ - سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن - دراسة منهجية، مدارس الأدب المقارن - دراسة منهجية، ط1، المركز الثقافي العربي: 1987، ص 101.
- ⁵ - أحمد درويش، الأدب المقارن - دراسات نظرية وتطبيقية، دار النصر للتوزيع والنشر، القاهرة، مصر: 2006، ص 38.
- ⁶ - حسام الخطيب، آفاق الأدب المقارن - عربيا وعالميا -، ط2، دار الفكر، دمشق، سوريا: 2009، ص 232.

9. قائمة المراجع:

1. أحمد درويش، الأدب المقارن - دراسات نظرية وتطبيقية، (القاهرة، مصر: دار النصر للتوزيع والنشر، 2006).
2. حسام الخطيب، آفاق الأدب المقارن - عربيا وعالميا -، ط2، (دمشق، سوريا: دار الفكر، 2009).
3. سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن - دراسة منهجية، ط1، (المركز الثقافي العربي، 1987).
4. عبده عبود، الأدب المقارن مشكلات وآفاق، (دمشق، سوريا: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999).
5. فرانسوا جويار، الأدب المقارن، ط2، ترجمة: هنري زغيب، (بيروت، لبنان: منشورات عويدات، 1988).
6. محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ط3، (بيروت، لبنان: دار الثقافة).